التجربة الأخلاقية عند ابن حزم الأندلسي

إعـــداد
أ.د. حامد طاهر (*)

ابن حزم أحد أعلام الفكر الأندلسى (توفى سنة ٤٥٦هـ) وهو شخصية متعددة المواهب ، فهو فقيه ، وأصولى ، ومؤرخ ، ومنطقى، ومحدث، ومصلح اجتماعى، ومحلل نفسى، وشاعر .. وقد أثبت كفاءته فى كل الميادين التى كتب فيها، وبرهن بالتالى على سمة التواصل والتكامل بين فروع الثقافة الإسلامية.

ففى مجال الفقه تبنى المذهب الظاهرى، وأصبح علما عليه، بل كان أكبر المدافعين عنه فى العالم الإسلامى كله. وله فى هذا المجال كتاب "المحلى" (عشرة أجزاء)، وفى أصول الفقه ترك لنا كتابه القيم "الإحكام فى أصول الأحكام" (٤ أجزاء). وفى التاريخ العربى ألف كتابًا موثقا عن أنساب العرب، أما فى علم الحديث فقد جمع كل الأحاديث والروايات التى تتصل بحجة الوداع التى قام بها الرسول ﷺ، قبل وفاته.

وفى مجال مقارنة الأديان كتب مؤلفا يعتبر من أهم المصادر فى هذا المجال بعنوان "الفصل فى الملل والأهواء والنحل"، وفى مجال المنطق قام بمحاولة تلخيص منطق أرسطو بطريقة متفردة عن كل من سبقوه فى كتاب بعنوان "التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الشرعية". وفى مجال الإصلاح الاجتماعى والتحليل النفسى ترك لنا ابن حزم كتابه النادر "طوق الحمامة" الذى يتناول فيه تحليل ظاهرة الحب ، من وجهة النظر الإسلامية، والذى ترجم إلى معظم لغات العالم.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن بين الروائع الكثيرة التي تركها ابن حزم توجد رسالة صغيرة الحجم بعنوان "الأخلاق والسير في مداواة النفوس"[1].

يقـول مطلعها:

"أما بعد ، فإني جمعت في كتابي هذا معاني كثيـرة ، أفادنيهـا واهـب التمييز ، تعالى ، بمرور الأيام ، وتعاقب الأحوال ، بما منحني عز وجل ، مـن التهمم بتصاريف الزمان[2] ، والإشراف على أحواله، حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري ، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، على جميع اللذات التـي تميل إليها أكثر النفوس ، وعلى الأزدياد من فضول المال ، وزممت كمل مـا سبرت[3] من ذلك بهذا الكتاب ، لينفع الله به من يشاء من عباده ، ممن يـصل إليه ، بما أتعبت فيه نفسي ، وأجهدتها فيه ، وأطلت فيه فكري ، فيأخذه عفـوا ، وأهديته إليه هنيئا ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال ، وعقد الأمـلاك ، إذا تدبره ، ويسره الله ، تعالى ، لاستعماله ، وأنا راج في ذلك من الله تعالى ، أعظم الأجر لنيتي في نفع عباده ، واصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة نفوسهم"[4] .

والمتأمل في هذه المقدمة يمكنه أن يقف على عدة عناصر منهجية تتميز بها جميع كتابات ابن حزم تقريبا . منها : تحديد مصدر المادة العلميـة التـي ضمنها المؤلف كتابه ، وهي هنا عبارة عن تجاربه الشخصية وتأملاته الخاصة في الحياة والناس من حوله . ومنها : بيان أهمية الموضوع الذي يتناوله ، وأنه أفضل من جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس ، وأغلى من كنوز المـال ،

---

(١) حققها وقدم لها بدراسة ممتازة الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ١٩٨١، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في دراستنا .

(٢) التهمم بتصاريف الزمان : الاهتمام بأحواله المختلفة .

(٣) زممت كل ما سبرت : جمعت أو قيدت كل ما اختبرته .

(٤) الأخلاق والسير ، ص٨٣-٨٥ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وعقد الأملاك ، ومنها : الإشارة إلى الجهد المبذول فى هذا العمل ، وأنه قد استغرق أكثر عمر المؤلف ، وشغل جانبا هاما من تفكيره ومراجعته. ولا شك فى أن عبارته "حتى أنفقت فى ذلك أكثر عمرى" تدل بوضوح على أن هذا الكتاب يأتى – من الناحية التاريخية – فى القسم الأخير من قائمة مؤلفات ابن حزم . ثم إن من أهم العناصر المنهجية أيضا : ذكر الغرض من التأليف ، وهو أن يضع كتابا مركزا يحتوى على مجموعة من التجارب والنصائح الأخلاقية لكى يتدبرها القارئ ، فقد يوفقه الله تعالى إلى استعمالها فى سلوكه. وأخيرًا فإن الدافع وراء هذا العمل، لم يكن كما هو الحال لدى كثير من المؤلفين القدماء – تقربا إلى عطف سلطان، أو تحقيقا لرغبة صديق عزيز، وإنما هو كما يحدده ابن حزم: رجاء فى أجر عظيم من الله تعالى، لأن نية المؤلف إنما هى لنفع الناس، وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة نفوسهم.

وهكذا فنحن أمام محاولة، فى المجال الأخلاقى ، تتجه إلى كل إنسان، يمكنه أن يقيس بنفسه مدى نجاحها أو فشلها بمجرد ملاحظة رد الفعل الذى يحدث من تأثيرها فيه.

ثم بعد المقدمة ، تتوالى فصول الكتاب ، التى تبلغ ١٢ فصلا ، مصدرة بالعناوين التالية :

- فصل فى مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق.
- باب عظيم من أبواب العقل والراحة.
- فصل فى العلم.
- فصل فى الأخلاق والسير.
- فصل فى الإخوان والصداقة والنصيحة.
- فصل فى أنواع المحبة.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- فصل فى أنواع صباحة الصور.
- فصل فيما يتعامل الناس به ، وفى الأخلاق.
- فصل فى مداواة أدواء الأخلاق الفاسدة.
- فصل فى غرائب أخلاق النفس.
- فصل فى تطلع النفس ما يستر عنها من كلام مسموع ، أو شئ مرئى، أو إلى المدح وبقاء الذكر.
- فصل فى حضور مجالس العلم.

ولسنا نميل إلى اعتبار هذه العناوين من وضع ابن حزم نفسه ، ويحتمل أن تكون من ضع بعض تلاميذه، أو نساخ كتبه ٠ ويلاحظ أنها لا تعبر بدقة عما يوجد فى داخل الفصول، بل يمكن القول بأن هذه العناوين ، بالإضافة إلى عنوان الكتاب نفسه، قد أساءت كثيرًا لمضمون الكتاب ، وحولت أنظار القراء عن بعض نظرياته المبتكرة، وأفكاره العميقة، وقصرته على كونه مجرد كتاب عادى فى الحكم والمواعظ الأخلاقية. الأفضل أذن أن أن ندع عناوين الفصول جانبا وأن نتناول، بقدر من التأمل والتحليل ، محتوى الفصول ذاتها ، حتى نتعرف على تلك المحاولة الفريدة التى قدمها ابن حزم فى مجال الأخلاق الإسلامية.

ولكى نتبين بوضوح محتوى الرسالة الأخلاقية التى أراد ابن حزم أن يوجهها للمعاصرين، وللأجيال اللاحقة له، يمكننا تصنيفها فى الأقسام الثلاثة الآتية :

أ-الاعترافات الأخلاقية.

ب-مجموعة الحكم.

ج-نظرية جديدة فى الأخلاق.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وفى رأينا أن هذه الأقسام الثلاثة تمثل عناصر التجربة الأخلاقية التى مر بها ابن حزم أصدق تمثيل. فهناك أولا الاعترافات الأخلاقية وهى تعبر عن مرحلة البحث واكتشاف حقيقة الذات.

وفيها توصل ابن حزم إلى بعض جوانب النقص فى شخصيته ، وبتحديدها، والإعلان عنها ينتقل ابن حزم من إنسان منفرد يسعى إلى إصلاح نفسه ، إلى مصلح أخلاقى يهتم بخير الآخرين. يقول: "ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والرذائل، لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ، ويرغب فى الحسن المنقول عمن تقدمه، ويتعظ بما سلف"[1] ثم هناك ثانيا مجموعة الحكم وهى عبارة عن خلاصة مركزة لخبرة عميقة فى الحياة ، واحتكاك مباشر مع المجتمع. وسوف نختار من بينها بعض الأمثلة التى تكفى لوضع ابن حزم بين مصاف الحكماء العالميين الذين برزوا فى هذا اللون. وأخيرا تأتى النظرية الجديدة التى يقدمها ابن حزم فى مجال الهدف النهائى من الحياة الأخلاقية، وهى نظرية "طرد الهم" التى يمكن أن تحل محل نظرية "السعادة" اليونانية، والتى تبناها بعض فلاسفة المسلمين بالفعل ، ولكنها ظلت عرضة للكثير من أوجه النقد، أما نظرية ابن حزم فيؤكد لنا أنها صالحة للتطبيق على الإنسان فى كل زمان ومكان.

أولاً : اعترافات ابن حزم:

إذا كانت الاعترافات الذاتية نادرة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، فأندر منها الاعترافات الأخلاقية ٠ ومرجع ذلك لسبب بسيط : هو أنه إذا كان الخطأ العقلى مسموحا به لدى طبقة المفكرين ، فإن الخطأ الأخلاقى مرفوض تماما من المجتمع كله ألسنا نسمع مثلا أن (الاعتراف بالخطأ فضيلة) والمفهوم طبعا هو

(١) الأخلاق والسير ، ص١٩٥ ٠

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الخطأ العقلي ، ويعلمنا رسول الله ، ﷺ ، أن المسلم إذا اجتهد برأيه فأصاب فله أجران ، فإن أخطأ فله أجر واحد . وهذا معناه أنه مثاب على حالتي الصواب والخطأ ، والمقصود أيضا هو الشخص الذي يتصدى لإصدار الفتوى في مسألة دينية . لكننا على العكس من ذلك ، لا نكاد نسمع شيئا عن أن تصريح الإنسان بأخلاقه السيئة يحتوى على أية فضيلة . بل إن الإسلام يحض المسلم على أن يداري سيئاته (إذا بليتم فاستتروا) وكأنما يقصد بذلك أن يحصر الرذيله في أضيق نطاق ممكن ، وبهذا يصبح السكوت عنها نوعا من مقاومتها.

غير مقبول إذن أن يكون التصريح بالعيوب موضع افتخار وتحد للمجتمع لأنه يعود بالضرر المؤكد على النشئ ، الذين يميلون بطبعهم إلى محاكاة ما يوجد أمامهم من مظاهر الشذوذ والغرابة[1]. لكن أن تذكر العيوب الأخلاقية بهدف أن يتعظ بها الآخرون، حتى يدركوا أن من يتصدى لوعظهم، وإصلاح أخلاقهم بشر مثلهم، يتعرض لما يتعرضون له من لحظات الضعف الإنساني، وتتسلط عليه من الأهواء والنوازع في بعض الأحيان ما يتسلط عليهم، فهذا شئ مختلف، بل إنه أسلوب ممتاز في جذب النفوس إلى الموعظة الحسنة، والسيرة المستقيمة. **يقول ابن حزم:**

"كانت فيّ عيوب ، فلم أزل بالرياضة ، واطلاعي على ما قالت الأنبياء، صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق، وفي آداب النفس، أعاني مداواتها .. حتى أعان الله ، عز وجل ، على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه.

---

(١) من المعروف أن نسبة الجريمة تزيد كثيرا بين الشباب الذين يشاهدون أفلام العنف والجريمة . وقد ثبت بالاحصائيات أن معظم الجرائم التي يرتكبها هؤلاء الشباب تحاكي إلى حد كبير – وأحيانا بصورة حرفية – ما يشاهدونه في السينما والتلفزيون .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وتمام العدل ، ورياض النفس ، والتصرف بأزمة الحقائق: هو الإقرار بها ، ليتعظ بذلك متعظ يوما إن شاء الله .

- فمنها : كلف فى الرضا[1] ، وإفراط فى الغضب :

فلم أزل أداوى ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط ، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار ، وتحملت من ذلك ثقلا شديدا ، وصبرت على مغص مؤلم ، كان ربما أمرضنى ..

وأعجزنى ذلك فى الرضا ، وكأنى سامحت نفسى فى ذلك ، لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤم .

- ومنها : دعابة غالبة :

فالذى قدرت عليه فيه إمساكى عما يغضب الممازح ، وسامحت نفسى فيها إذ رأيت تركها من الانغلاق ، ومضاهيا للكبر .

- ومنها : عجب شديد :

فناظر عقلى نفسى بما يعرفه من عيوبها ، حتى ذهب كله ، ولم يبق له ، والحمد لله ، أثر . بل كلفت نفسى احتقار قدرها جملة ، واستعمال التواضع .

- ومنها : حركات كانت تولدها غرارة الصبا ، وضعف الأعضاء، فقصرت نفسى على تركها فذهبت .

- ومنها محبة فى بعض الصيت والغلبة :

فالذى وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عمل لا يحل فى الديانة ، والله المستعان على الباقى ..

---

(١) يعنى رغبة شديدة فى أن يرضى عنه الآخرون .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- **ومنها افراط فى الأنفة** ، بغضت إلى انكاح المحارم[1] جملة بكل وجه ، وصعبت ذلك فى طبيعتى .

وكأنى توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذى أعرف قبحه لعوارض اعترضت على ، والله المستعان .

- **ومنها حقد مفرط :**

قدرت بعون الله تعالى على طيه وستره ، وغلبته على إظهار جميع نتائجه ، وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه ، وأعجزنى معه أن أصادق من عادانى عداوة صحيحة أبدا[2] .

- **وأما سوء الظن :**

فيعده قوم عيبا على الإطلاق ، وليس كذلك ، إلا إذا صاحبه ما لا يحل فى الديانة ، أو إلى ما يقبح فى المعاملة ، وإلا فهو حزم ، والحزم فضيلة[3] .

- وأما **الزهو** ، **والحسد** ، **والخيانة** .. فلم أعرفها بطبعى قط ، وكأننى لاحمد لى فى تركها ، لمنافرة جبلتى (طبيعتى) إياها"[4] .

وهكذا بمثل هذا الوضوح والصراحة ، يقدم ابن حزم نفسه لنا عارية من الأقنعة التى يندر أن يخلعها الإنسان أمام الآخرين . فإذا نظرنا إلى هذه الاعترافات من وجهة النظر العلمية الخالصة ، وجدنا أن ابن حزم قد وصل إلى مرحلة عالية من التحليل النفسى الذاتى ، استبطن فيه مكونات شخصيته ، وكشف عن نوازعها واتجاهاتها ، ووضع يده على مواطن العيوب ، وأوجه النقص .

---

(١) يعنى تزويج بناته وأخواته للآخرين .

(٢) أى صعب على مصادقة أعدائى بإخلاص كامل .

(٣) الأخلاق والسير ص١٢٩ – ١٣٤ .

(٤) السابق : ص١٤٠-١٤١ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن المعروف أن الطبيب النفسانى لا يفعل مع مريضه أكثر من أن يصحبه فى رحلة عميقة داخل ذاته ، حتى يكتشفا فى النهاية معا أسباب العقد النفسية التى عندما تترك بدون كشف تصبح مرضا خطيرا يفسد التوازن ، ويحطم الشخصية . أما إذا تم اكتشافها وجرى الحديث عنها فإن الأمر يختلف ، وبالتدريج يتخلص منها المريض ، وتبدأ عناصر شخصيته السوية تتوازن داخل المجتمع ، ويصبح أكثر قدرة على التأقلم فيه من جديد .

ومع ذلك ، فنحن هنا أمام تجربة رائدة ، يكتشف فيها صاحبها بنفسه جوانب النقص فى شخصيته ، ثم يعلنها للآخرين بقصد تحذيرهم منها ، وأرشادهم إلى أفضل الطرق لمعالجتها .

ثانيًا : مجموعة الحكم :

إذا كانت الأمثال (جمع مثل) هى خلاصة فلسفة عامة الناس ، ومستودع تجاربهم الطويلة ، فإن الحكم (جمع حكمة) يمكن اعتبارها خلاصة فلسفة المفكرين. وهى تمثل عادة فى عبارات مركزة ، ولكنها قوية ومعبرة ، وتحمل من المعانى أكثر مما فيها من الألفاظ ، ومن المعروف أنه لا يقدر على صياغتها سوى قلة قليلة م قادة الفكر ، وذوى الرأى الثاقب ، وأهل الخبرة الطويلة[1].

ومما يلاحظ بصفة مبدئية على هذا اللون من الفلسفة المختصرة أنه يوجد تقريبا لدى كل الشعوب ، وأن هذه الشعوب تكاد تلتقى على كثير من مبادئه وقيمه. والسبب بسيط : فهو عبارة عن تسجيل ملاحظات العقل الإنسانى لما يمر به من تجارب ، قد يبدو من حيث الظاهر أنها مختلفة ومتنوعة ، ولكنها فى الحقيقة متشابهة، فالحب والعطف والوفاء تماما مثل الكراهية والقسوة والخيانة

(١) وهى بعينها التى يقصدها الرسول ، ﷺ ، فى توله "اوتيت جوامع الكلم" أى الكلمات القليلة العدد الجامعة لصنوف الحكمة .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

حقائق ثابتة على مر العصور ، ورغم اختلاف الأماكن ، ولكن مظاهرها الخارجية هى التى تتعدد وتتنوع وتختلف ٠٠ فإذا أضفنا لذلك أن العقل الإنسانى عندما يمر باحدى هذه التجارب ، فإنه قد يخدع أولا بمظهرها الخارجى ، وقد يقف طويلا لديه ، ولكنه إذا تعمق التجربة ، وحاول اكتشاف جوهرها وجد نفسه وجها لوجه أمام حقيقتها الثابتة التى لا تتغير.

وقد ورث المسلمون حضارات الأمم السابقة عليهم ، واستوعبوا معظم الثقافات التى كانت منتشرة فى أرجاء العالم القديم ، ولا شك أنهم وقفوا على هذا اللون من الفلسفة أو الحكمة المركزة ، وقد أعجبوا به ، ونقلوا الكثير منه إلى اللغة العربية ، فصانوه بذلك من الضياع ، لكن جهودهم لم تقتصر على ذلك ، فقد ساهموا هم أيضا فيه ، وما زال تراثهم فى هذا المجال بحاجة إلى الجمع والتصنيف ، فضلا عن دراسته وتحليله٠ وحسبنا هنا الآن أن نتوقف لدى ابن حزم ، الذى ترك لنا فى كتابه الصغير الحجم الذى نعتمد عليه فى هذه الدراسة ، عددا لا بأس به من الحكم الأخلاقية ، والتى سوف نقتطف منها مجموعة كافية فى دلالتها لاثبات أننا أمام مفكر عميق ، وفيلسوف خبر الحياة ، واستخلص من أحداثها المتغيرة والمنقطعة موقفا أكثر ثباتا واستمراراً:

- لا مروءة لمن لا دين له.
- العاقل لا يرى لنفسه ثمنا إلا الجنة.
- من قدر أن يسلم من طعن الناس وعيوبهم فهو مجنون.
- انظر فى المال والحال والصحة إلى من دونك، وانظر فى الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك.
- إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها[1].

---

(١) السابق ص١١٣ ٠

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها[1].

- أول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، وأول من تهون الزانية في عينه الذي يزني بها[2].

- كثرة وقوع العين على الشخص يسهل أمره ويهونه[3].

- لا يغتر العاقل بصداقة حادثة له أيام دولته ، فكل واحد صديقه يومئذ[4].

- ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك ، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك[5] .

- نوار الفتنة لا يعقد[6] .

- لا يخلو مخلوق من عيب ، فالسعيد من قلت عيوبه ودقت[7] .

- استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بسيئاتك[8] .

- العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فإما أن تصفوا وإما أن تطير[9] .

---

(١) السابق ص١١٤ .
(٢) السابق ص١١٨ .
(٣) السابق ص١١٩ .
(٤) السابق ص١٢٠ .
(٥) السابق ص١٢٠ .
(٦) السابق ص١٢٠ ، ويعني أن زهور الفتنة لا تخرج ثمرا .
(٧) السابق ص١٤٢ .
(٨) السابق ص١٤٣ .
(٩) السابق ص١٤٣ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

- لا تنصح على شرط القبول ، ولا تشنع على شرط الإجابة ، ولا تهب على شرط الإثابة ، لكن على سبيل استعمال الفضل ، وتأدية ما عليك من النصيحة ، والشفاعة وبذل المعروف[١] .

- قد يكون المرء صديقا لمن ليس صديقه[٢] .

- الخطأ فى الحزم خير من الخطأ فى التضييع[٣] .

- أشد الناس استعظاما للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالا لها بفعله[٤].

- اقنع بمن عندك يقنع بك من عندك[٥] .

- الطمع سبب كل هم[٦] .

ثالثًا : نظرية طرد الهم :

لكى ندرك مدى الجدة فى نظرية ابن حزم لابد من إلقاء نظرة سريعة على المذاهب الأخلاقية التى سبقته ، مركزين بصفة خاصة على الغاية أو الهدف النهائى من الحياة الأخلاقية.

فى الفكر الإغريقى، نجد أن غاية الأخلاق لدى السفسطائيين تنحصر فى تحقيق اللذة الفردية لكل إنسان ٠ أما سقراط فقد جعل هذه الغاية هى السعادة ٠ ولكى نصل إلى السعادة لابد أن نمارس الفضيلة ، التى تنتج عن المعرفة ٠ أى

---

(١) السابق ص : ١٤٧ ٠

(٢) السابق ص : ١٤٨ ٠

(٣) السابق ص : ١٧١ ٠

(٤) السابق ص : ٢٣٦ ٠

(٥) السابق ص : ١٧٤ ٠

(٦) السابق ص : ١٧١ ٠

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

أنه لكى يكون الإنسان فاضلا لابد أن يكون عالما . ولا شك فى أن هذا المفهوم يقصر الفضيلة ، وبالتالى السعادة ، على قلة قليلة من المجتمع[١] .

كذلك قرر أفلاطون أن غاية الحياة الأخلاقية هى السعادة لكنه يجعلها تقترن بالعدالة أى الاعتدال فى الأمور ، ولا يتحقق الخير الأسمى للإنسان الا إذا أدرك عالم المثل ، الذى يعتبر عالم الأرض نسخة مشوهة منه[٢] .

ولدى أرسطو ، الذى كتب مؤلفا مستقلا فى الأخلاق ، أصبحت الأمور أكثر تحديدا ، فقد جعل الخير الأسمى هو غاية الأخلاق . ومفهومه أنه الخير الذى يطلبه الناس جميعا لذاته ، ولا يرجون من ورائه شيئا آخر ، وقد حدده أيضا بأنه السعادة . وتتحقق السعادة عنده بالتأمل العقلى . أما الفضيلة فقد عرفها بأنها : "وسط بين طرفين" هما التفريط والإفراط . ومعنى ذلك أن تكون الشجاعة مثلا حالة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الإسراف والتقتير .. وهكذا[٣] .

وفى العصر الهللينى ظهرت بعض المذاهب الأخلاقية التى انبثقت بالضرورة عن مذاهب فكرية وفلسفية مختلفة ، هى الأبيقورية (اتباع أبيقور) ، والرواقية ، ومذهب الشك . وعلى الرغم من الخلافات الدقيقة بينها ، فإنها تلتقى جميعا فى حصر السعادة فى الجانب العقلى أو الروحى، وإهمال جانب الجسد ، واحتقار الحياة المادية بكل أنواعها . ويلاحظ أن مفهومها للسعادة يشيع فيه الاتجاه السلبى بمعنى أن الإنسان يبتعد عن المجتمع ليسلم من شروره ، وينصرف عن الحياة المادية ليتخلص من مصائبها[٤] .

---

(١) Charles Warner, La Philosphie Grecque p. ٤٢, ٥٤. Psyot, Paris ١٩٦٩ .

(٢) السابق ، ص٨٣ .

(٣) السابق ، ص١٢١ ، ١٤٧ .

(٤) السابق ، ص٢٣٣ .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وقد ظل هذا الاتجاه الفكرى والأخلاقى سائدًا بين أصحاب هذه المذاهب حتى ظهرت المسيحية ، واستقرت ، فتغلب مفهومها للحياة الأخلاقية . وهو مفهوم يقوم أساسا على أن السعادة التى يسعى إليها الإنسان فى هذه الحياة سعادة وهمية ، لأن السعادة الحقة إنما هى فى ملكوت السماوات . وهذه النقطة هامة جدًا لأنها تفصل بصورة حاسمة بين التصورات الإغريقية وما تلاها وبين التصور المسيحى . ولا شك فى أن حياة السيد المسيح قدمت للمفكرين الأخلاقيين نموذجًا رائعا فى شتى جوانبه ، لكنهم ركزوا بصفة خاصة على ما جاء فى تعاليمه من التواضع، والمسامحة ، والعفو عن الإساءة (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر) وهذا منتهى النبل الإنسانى فى معاملة المسيء[1] .

لكن الأخلاق المسيحية تبدأ من مسلمة أخرى أيضا هى أن الإنسان فى الواقع يعيش نتيجة خطيئته الأولى أو الأصلية ، لذلك فإنه مطالب منذ اللحظة الأولى لميلاده بأن يكفر عن هذه الخطيئة ، ولهذا فإنه يعيش محملا بعقدة ذنب ، لم يرتكبه ، ومدركا أنه ذو طبيعة رديئة ، يجب عليه أن يصارعها باستمرار ، وهو يتسلح فى خلال ذلك بالصلاة ، وإخلاص النوايا (تحتل النية مكانة أكبر بكثير من الفعل) والتحرر من الأهواء والنوازع البشرية ، مع الاعتقاد بأن الإنسان لن يمتلك السعادة قط على هذه الأرض المليئة بالشرور والخطايا ، وإنما فقط يمكنه أن يحس بها ، ولا ينتج هذا الا من الأمل فى عفو الله ورحمته التى تسع جميع المذنبين[2] .

---

(١) Pierre Adnés, La théologie Cotholique, p. ٨٤, Paris ١٩٦٧.

(٢) انظر : الدكتور توفيق الطويل ، فلسفة الأخلاق ص١٣٠ وما بعدها ط ثانية ١٩٧٦ القاهرة .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن المعروف أن فلاسفة الإسلام كالفارابى ومسكويه والغزالى قد تبنوا بعض النظريات الإغريقية الخاصة بالهدف الأخير من الأخلاق ، واختاروا فكرة السعادة باعتبارها هى الغاية الأسمى التى يسعى الناس جميعا إلى بلوغها ، ويطلبونها لذاتها أى دون أن تكون هى الأخرى وسيلة لغرض آخر[١] ٠

لكن ابن حزم يطالعنا فى كتابه "الأخلاق والسير"[٢] بنظرية جديدة حول غاية الأخلاق ، وهو يحددها فى مصطلح جديد تماما هو "طرد الهم" ويؤكد أنه قد توصل بخبرته الطويلة وتجاربه إلى أن هذا الغرض يصلح أن يكون هدفا أسمى للحياة الأخلاقية ٠ وللتدليل على صحة رأيه ، يؤكد ابن حزم أنه وجد أن الناس جميعا على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم يسعون إلى بلوغ هذا الهدف ، ويتفقون على أنه هو غرضهم ، فى حين أن أى هدف آخر – بما فيه السعادة – يمكن أن يكون محل خلاف بينهم ٠ يقول ابن حزم :

"تطلبت غرضا يستوى الناس كلهم فى استحسانه ، وفى طلبه ، فلم أجده إلا واحدا ، وهو طرد الهم ٠ فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا فى استحسانه فقط ، ولا فى طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم ، وتباين هممهم وارادتهم لا يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرد الهم ، ولا ينطقون بكلمة أصلا إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم : فمن مخطئ وجه سبيله ، ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب وهو الأقل من الناس ، فى الأقل من أموره ٠

---

(١) D. M. Donaldsin. Studies in muslim ethies, p. ٩٧, ٩٨ London ١٩٥٣.

(٢) تستغرق الصفحات ٨٧–٩٣ ٠

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فطرد الهم مذهب قد اتفقت الأمم كلها ، منذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء[1] ويعاقبه عالم الحساب على ألا يعتمدوا بسعيهم شيئا سواه ، وكل غرض غيره ففى الناس من لا يستحسنه.

إذ فى الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة، وفى الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ، ولا الأمن ، ولا الحق.

- وفى الناس من يؤثر الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت .

- وفى الناس من لا يريد المال ، ويؤثر عدمه على وجوده ، ككثير من الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم ، من الزهاد والفلاسفة .

- وفى الناس من يبغض اللذات بطبعه ، ويستنقص طالبها ، وفى الناس من يؤثر الجهل على العلم ، كأكثر من ترى من العامة .

وهذه هى أغراض الناس التى لا غرض لهم سواها. وليس فى العالم منذ كان إلى أن يتناهى أحد يستحسن الهم ، ولا يريد طرده عن نفسه".

هذا - إذا أمكن القول - هو الشق الأول من نظرية ابن حزم. وقد حدد فيه بوضوح الهدف الأساسى والنهائى من الحياة الأخلاقية، مؤكدا على عمومية هذا الهدف أو عالميته ، وصلاحيته لكل زمان ومكان.

لكن يبقى النصف الثانى ، وهو يتمثل فى توجيه الإنسان إلى تحقيق هذا الهدف ، وإرشاده إلى الطريق المؤدية اليه. **وفى هذا يقول ابن حزم:**

"فلما استقر فى نفسى هذا العلم الرفيع، وانكشف لى هذا السر العجيب، وأنار الله تعالى لفكرى هذا الكنز العظيم، بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم ، الذى هو المطلوب للنفس، الذى اتفق جميع أنواع الإنسان،

---

(١) المقصود عالم الدنيا .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الجاهل منهم والعالم ، والصالح والطالح ، على السعى له ،فلم أجدها إلا : التوجه إلى الله ، عز وجل ، بالعمل للآخرة ٠

وإلا ، فإنما طلب المال طلابه ليطردوا به هم الفقر عن أنفسهم ٠

وإنما طلب الصوت (الصيت) من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها٠

وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها ٠

وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل ٠

وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس ، من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد ، ومغيب أحوال العالم عنه ٠

وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس، ولعب من لعب ، واكتن (استتر فى منزل) من اكتن ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع ٠٠٠ ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم ٠

وفى كل ما ذكرنا، لمن تدبر، هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض فى خلالها، وتعذر ما يتعذر منها ، وذهاب ما يوجد منها، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة، وأيضا نتائج سوء تنتج بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك، من خوف منافس، أو طعن حامد، أو اختلاس راغب، أو اقتناء عدو، مع الذم والإثم ، وغير ذلك.

ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب ، خالصا من كل كدر ، موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة ٠

ووجدت العامل للآخرة ان امتحن بمكروه فى تلك السبيل لم يهتم، بل يسر ، إذ رجاؤه فى عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب ، وزائد فى الغرض الذى إياه يقصد ٠

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ، إذ ليس مؤاخذا بـــذلك ، فهو غير مؤثر فى ما يطلب .

ورأيته إن قصد بالأذى ، وإن نكبته نكبة سر ، وأن تعب فيما سلك فيـــه سر ، فهو فى سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا .

وأخيرًا يلخص ابن حزم نظريته المبتكرة بجانبيها اللذين يتضمنان الهدف والوسيلة **معا فى قولـــه:**

- "فاعلم أنه مطلوب واحد ، وهو طرد الهم.
- وليس له إلا طريق واحد ، وهو العمل لله تعالى .
- فما عدا هذا فضلال وسخف" .

****

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

قائمة بأهم المراجع

* **الآجرى** ، أخلاق العلماء ٠ دار الكاتب العربى – بيروت (د٠ت) ٠

* **أحمد أمين** ، كتاب الأخلاق ، النهضة المصرية ط عاشرة ٠ القاهرة ١٩٨٥ ٠

* **أرسطو** ، الأخلاق ، ترجمة أحمد لطفى السيد ، الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩ ٠

* **البيهقى** ، الآداب ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، بيروت ١٩٨٦ ٠

* **ابن حزم** ، الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ٠ تحقيق د٠ الطاهر مكى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨١ ٠

* **الحكيم الترمذى**،

-الرياضة وآدب النفس ، تحقيق على عبد القادر ، القاهرة ١٩٤٥ ٠

-الفروق.

* **الشرباص** (د٠ أحمد) أخلاق القرآن (ست مجلدات) بيروت ٧١-١٩٧٩

* **صبحى** (د٠ أحمد محمود)

الفلسفة الأخلاقية فى الفكر الإسلامى : العقليون والذوقيون ط٠ ثانية ٠ دار المعارف القاهرة ١٩٨٣ ٠

* **عفيفى** (د٠ أبو العلا) التصوف الثورة الروحية فى الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٣ ٠

* **الغزالى** ، إحياء علوم الدين (٤ أجزاء)

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

* **المحاسبي** ، الرعاية لحقوق الله ، تحقيق د٠ عبد الحليم محمـــود ٠ دار المعارف ١٩٨٤ ٠

* **مقداد يلجن** (د٠) ، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، مكتبـــة الخـــانجي ، القاهرة ١٩٧٣ ٠

* **مسكويه** ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ٠ تحقيق ابـــن الخطيـــب ، المطبعة العصرية ، القاهرة ١٩٧٨ ٠

****

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com